هل الإنسان مجبر على المعاصي؟



▶الجبر في اللغة هو الإكراه والإرغام والقهر. في علم الكلام: هو إجبار ا تعالى عباده على الفعل خيرا ً كان أو شرا ً حسنا ً كان أو قبيحا ً دون أن يكون للعبد إرادة واختيار وقدرة على الرفض والامتناع. وبهذا المعنى اعتقدت الأشاعرة، وهم أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وكان معتزليا ً ترك الاعتزال على أثر مناظرة حدثت بينه وبين أستاذه محمد بن عبدالوهاب الجبائي في موضوع (الصلاح والأصلح) فتخاصما فإنحاز الأشعري إلى جماعة الصفاتية في الجبر وأيد مقالاتهم بمناهج من علم الكلام في الجبر وجواز رؤية ا وأصبح مذهبه من المذاهب المنتشرة في البلاد الإسلامية، ومن الأشاعرة جماعة عرفوا بأهل التنزيه لم يجوزوا رؤية ا تعالى واعتبروا الأفعال مكتسبة من العباد كما اعتقد بذلك الجهمية، وهم أتباع جهم بن صفوان الذي ظهر في ترمذ بمذهبه فقتله سالم بن أحوز المازني ويعتبر مذهبه في الجبر من المذاهب الخالصة المتطرفة في القول بالجبر كذلك المرجئة وهم فرق متعددة يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر حسنة.

وبعبارة أخرى قالت الأشاعرة والجهمية والمرجئة بأن ّ ا□ تعالى هو الخالق لكل ّ ِ شيء ومنه الخير والشر والهدى والضلال والكفر والإيمان وكل ّ أفعال العبد مستندة إليه تعالى وليس للعبد قدرة وإرادة واختيار في فعل الشيء وتركه لأن ّه مجبر ومكره على كل ّ ِ ما يفعله من خير وشر فالقدرة والمقدور واقعان بقدرة ا□ وليس لقدرة العبد أثر في أفعاله، وإستدلوا على ذلك بأدلة أهمها:

¹⁻ إنّ ا□ تعالى لو أراد من الكافر الإيمان وأراد الكافر الكفر حصلت إرادة الكافر كان ا□ مغلوباً وكانت إرادة الكافر الكفر أقوى من إرادة ا□ تعالى له الإيمان، ولما كان ا□ لا يغلب على أمره كانت إرادة الكفر للكافر من ا□.

- 2- إنَّ كلَّ َ ما علم ا[تعالى وقوعه فهو واقع لامحالة، وما علم امتناع وقوعه فهو يمتنع حتما ً فإذا علم ا[وقوع الكفر من الكافر استحالت على الكافر إرادة الإيمان.
- 3- قالوا إن " في القرآن من الآيات ما يثبت إن " ا□ تعالى هو خالق العباد وخالق أفعالهم وأن " الحسنات والسيئات آتية من ا□ تعالى وكلها من عنده، ومن تلك الآيات قوله تعالى: (وَاللَّهُ وُ حَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات/ 96)، (وَإِنْ تُصِبْهُمُ ° حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذَهِ مِنْ عَنْدُ وَمَا اللَّهَ وَإِنْ تُصِبْهُمُ «مَيْ عَنْدُ وَاللَّهُ مِنْ عَنْدُ وَمَا أَرْسَلاْنَاء مَنْ رَسُولٍ إِلاَ اللَّهُ مَنْ يَشَاء وَ يَهُدُو مَنْ يَشَاء وَ يَهُدُو وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا اللَّهُ مَنْ يَشَاء وَ يَهُدُو وَ يَهُدُو وَلَا وَلَا يَكُنِ وَالرَاهِيم / 4)، وقوله تعالى: (وَلَوَ شَاء وَللَّهُ للَّهُ لَيَّهُ لَا للَّهُ مَنْ يَشَاء وَ وَلَا كُنْ تَعْمُ تَعْمُ لللَّهُ اللَّهُ مَنْ يَشَاء وَالمَلال. وغيرها من الآيات التي وردت فيها كلمة الهدى والضلال.

- 1- لو كان ا□ تعالى يجبر بعض العباد على الإيمان والبر والهدى ويجبر الآخرين على الكفر والشر والضلال وكان البعض منهم مكرها ً على الطاعة والآخر مرغما ً على العصيان لبطل التكليف وألغيت كل ّ التعاليم والأوامر الصادرة منه تعالى إلى المكلفين لأن ّ من شروط التكليف أن يقع الفعل من الفاعل بمحض إرادته واختياره أما إذا كان المكلف مرغما ً والمأمور مجبرا ً على تنفيذ الأمر وكان المكلف (بكسر اللام) قد خلق العل بالفاعل وأوجده فيه دون أن يكون له اختيار وإرادة في خلق الفعل ولا قوة له ولا قدرة على مخالفته والامتناع من حدوثه لم يسم الفعل تكليفا ً لأن ّ المكلف به محقق الوجود وما كلف به العبد تحصيل حاصل ولا معنى بتكليف العبد بفعل حاصل بقدرة المكلف (بكسر اللام) وإرادته لأن ّه حتمي الوقوع إن شاء العبد ذلك أو لم يشأ، أراده العبد أم لم يرده لأن ّه مسلوب الإرادة والاختيار.
- أ- إذا كان المؤمن مجبراً على الإيمان والكافر مجبراً على الكفر بإرادة ا□ وقدرته ومشيئته كان الكافر والمؤمن متساويين في الطاعة لأن الكافر لم يختر الكفر بإرادته والمؤمن لم يرد الإيمان باختياره ووجب على ا□ تعالى أن يعامل المؤمن والكافر معاملة واحدة فيعاقبهما معا ً أو يثيبهما معا ً لأنهما لم يختارا الكفر والإيمان لنفسيهما وإنما تم الاختبار بإرادة ا□ ومشيئته لهما وعلى هذا الزعم يبطل الحساب والعقاب والجنة والنار والوعد والوعيد ويكون الطالم الشرير والخير العادل والمؤمن والكافر في حكم واحد ووجب أن يشطب من تعاليم ا□ تعالى كلمة الطاعة والمعصية والكفر
- 3- لو كان الكافر مجبراً والظالم مكرها ً على فعل الظلم لكان للكافر والظالم حجة على ا□ إذا أدخلهما النار وعاقبهما على فعلهما لأنهّ هو الخالق فيهما الكفر والظلم وهذا يخالف ما جاء في القرآن الكريم: (قُلُ ° فَلَـِلاَّهَ ِ الـ ْحُجُّةُ الـ ْبَالَـِغَةُ وَلَـو ° شَاءَ لَـهَدَاكُم ْ أَجَ ْمَعـِينَ) (الأنعام/ 149).
- 4- إذا كان ا□ تعالى هو خالق الشر والكفر والضلال في الإنسان ولا إرادة للإنسان ولا قدرة على مخالفته وإذا كان ا□ يجبر بعض العباد على الإيمان والبعض الآخر على الكفر كانت الشرائع والأديان والكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ورسله (عبثاً) وكانت دعوة الأنبياء الناس إلى الإيمان با□ وفعل الخير والتجنب من الشر والفساد باطلة ولا أثر للشرائع والأديان في توجيه الإنسان ولا يترتب عليها شيء من أفعال الإنسان ولا تلتزم الناس أحكامها لأنهم جميعهم مسيرون بإرادة ا□ الذي خلق فيهم أفعالهم من خير وشر وكفر وإيمان ولا قدرة لهم على مخالفة ما أراده ا□ لهم وكانت دعوات الأنبياء للناس: آمنوا با□، اقيموا العدل، اجتنبوا الفحشاء لا أثر لها في نفوس العباد لأن " الذي خلق ا□ فيه الكفر لا يقدر على الإيمان ومن خلق فيه الإيمان لا يقدر على الإيمان ومن خلق فيه الإيمان لا يقدر على الكفر كما يقول الأشاعرة والمجبرة والجهمية وغيرهم.

- 5- لو صح ما ذهب إليه الأشاعرة وأمثالهم من المجبرة من أن "الإنسان لا إرادة له ولا اختيار فيما يفعل من خير وشر وإن "القدرة والمقدور واقعان بقدرة ا□ تعالى وليس للعبد قدرة وإرادة واختيار لكانت القوانين الشرعية والوضعية الخاصة بالعقاب والتأديب غير ملزمة للإنسان وإنما مهما وصفت بالعدل كانت ظالمة للإنسان الذي يرتكب الشر ويقترب الجرائم بفعل غيره فهو إذ يقتل يقتل لا بإرادته وهو إذ يسرق لا يسرق لا يسرق باختياره وإنما يفعل ذلك مجبورا ً أو مكرها ً ومرغما ً على فعل القتل والسرقة ولا سبيل له غير تنفيذ إرادة من قهره وأجبره فأخذ القاتل بالقتل وقطع يد السارق ومعاقبة أي مجرم في ذلك ظلم لا يتفق والعدل وترك القاتل يقتل والمفسد يفسد في الأرض لا يتفق والمحافظة على الكيان البشري ولا يقول به أي إنسان لأن " في العقاب سلامة المجتمع وأمنه وفي القصاص من القاتل حياة الإنسان وبقائه كما في قوله تعالى: (و َل َك ُم ْ ف ِي الدُّق صاص ح َي َاة " يا أ ول ِي الأل ْب َاب َ ل َع َل ّ تَكُم ْ تَت ّ قُون) (البقرة / 179).
- 6- على زعم المجبرة وأتباعهم: لا يوجد في الدنيا من هو أظلم من ا□، تعالى ا□ عمّا يقول الجاهلون وأي ظلم أفضع من ظلم ا□ تعالى للإنسان والعياذ با□ لأنّه على زعم المجبرة يجبر الإنسان على فعل الشر ويكرهه عليه ثمّ يعاقبه في الدنيا بحكم ما شرعه من الأحكام الموجبة للعقاب وفي الآخرة يأخذه ويدخله النار ويخلده في عذاب أليم جزاءاً لما ارتكبه من فعل الشر المرغم عليه إن فعلت من عقاب الدنيا.
- 7- أما ما استدل به المجبرة: من أن ّ ا□ تعالى لو أراد من الكافر الإيمان وأراد الكافر الكفر دون إرادة ا□ كان ا□ مغلوبا ً على إرادته، فإن ّ هذا الدليل يثبت الاختيار وينفي الجبر وذلك إن ّ إرادة ا□ تعالى من الكافر الإيمان إرادة تكليفية متروكة إلى اختيار الكافر فلو كانت إرادة ا□ الإيمان من الكافر تكوينية لتحققت حتما ً إرادة ا□ تعالى دون إرادة الكافر إ ّلا أن يكون المجبرة قد جعلت إرادة الكافر أقوى من إرادة ا□ وقدرة الكافر على تحقيق إرادته أعظم من قدرة ا□، تعالى ا□ عم ّا يقول الجاهلون وهذا ما لا يقول به أحد من المسلمين.
- 8- أما ما ذهب إليه المجبرة من أن " ا□ تعالى كلما علم بوقوع شيء وقع لامحالة وإذا علم امتناع الشيء امتنع لامحالة هو الآخر دليل لا يجوز على العقلاء وذلك إن "العلم بالموجودات من الوقوع واللاوقوع ولا علاقة للعلم في إحداث الشيء فالعلم شيء والحدوث شيء آخر، العلم هو معرفة ما يحدث للأشياء والإحاطة بموضوع الشيء وإدراك حقيقته فإذا كان العلم بحقيقة الشيء وما يصدر منه تاما ً صدق الإخبار عنه وإن كان ناقصا ً كان الإخبار عنه غير صحيح فلو كان العلم عاملا ً من عوامل إيجاد الشيء وحدوثه كان المخبر عن الأنواء الجوية وتقلبات الهواء وحدوث الأمطار هو الفاعل المحدث لها وهكذا كل من علم بخسوف القمر وكسوف الشمس كان المحدث لذلك إذا صدق علمه.

إن ّ علم ا□ تعالى بما كان وما يكون وما سطره في اللوح المحفوظ وأخبر به ملائكته ورسله لم يكن مؤثرا ً في أفعال عباده وليس هناك من يشك في أن ّ مفهوم العلم هو غير مفهوم الخلق والإيجاد ولا يمكن أن يطلق العلم على الحدث والفعل حقيقة أو مجازا ً صراحة أو كناية في مفهوم لغات العالم كلها ولا جدال في أن ّ ا□ تعالى عالم بكل ّ ِ شيء.

9- إنَّ ما استدل به المجبرة ومن تبعهم في القول (بالجبر) من الآيات الكريمة المذكورة في الدليل الثالث من أدلتهم لا تدل على الجبر إذا فهم الناس معناها وفسرت على الوجه الصحيح المطابق للحقيقة والواقع. والتفسير الصحيح لما وقع فيه المجبرة من الشبهة في الجبر وقالوا بأنَّ ا□ تعالى هو فاعل الخير والشر، هو في البيان التالي:

إن ّ كل ّ َ مدرك يعي من سياق هذه الآيات إن ّ إبراهيم (ع) بعد أن اختبر عبادة قومه راح يسخر من آلهتهم التي نحتوها بأيديهم ويقول لهم ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ ثم ّ عمد إليها وكسرها بيده اليمنى وحطمها في غياب قومه ولما أقبلوا إليه ووجدوه قد هشم أصنامهم قال لهم إبراهيم على وجه الاستنكار أتعبدون ما تنحتون بأيديكم؟ وا□ خلقكم وخلق المادة التي نحتم منها أصنامكم فأنتم وما تعبدون من هذه الأحجار التي صيرتموها أصناما ً هي من خلق ا□ تعالى، مستنكرا ً على قومه إتخاذ المخلوقات خالقا ً ومعبودا ً، وليس في الآية ما يدل على إن ّ ا□ تعالى هو الذي خلق الأحجار آلهة وأجبر قوم إبراهيم على عبادتها! بدليل قوله تعالى: (أَ تَعْ بُدُونَ مَا تَنْ ْحَـِتُونَ) (الصافات/ 95)، أي إنكم تعبدون ما نحتتها أيديكم وصيرتموها آلهة من دون ا□.

يضاف على ما تقدم إن إبراهيم (ع) كان في مقام محاججة قومه وإنتّه كان يستنكر عليهم عبادة الأصنام من دون ا□ فإذا كان ا□ هو العامل لها وهو المجبر لهم على نحتها لما كانت له عليهم حجة فيما أجبر ا□ تعالى عباده عليه وما خلقه في نفوسهم وأراده لهم وحكلهم على نحته وعبادته.

المصادر:

- 1- القرآن الكريم
- 2- تفسير مجمع البيان/ للطبرسي
 - 3- عقيدتنا/ للأنصاري
 - 4- الملل والنحل/ للشهرستاني
 - 5- الفصل/ لابن حزم الظاهري

المصدر: مجلة النور/ العدد 31 لسنة 1993م